شخصيات تاريخية :

ثيموستوكل

THÉMISTOCLE

للأستاذ محمد الشحات أيوب

كانت بلاد اليونان فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، محاطة بدول فتية ناهضة كدولة الفرس فى الشرق التى قضت على الإمبراطوريات الكبرى القديمة فى مصر وكلدونيا وسوريا وليديا ، وكدولة القرطاجنيين التى نهضت فى شمال إفريقيا ، وأخذت تبسط سلطانها على البلاد المجاورة لها فى الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط ، وكدولة روما الناشئة التى ثارت فى وجه الأترسكيين ، وأخذت تكون لنفسها سلطاناً واسعاً فى شبه جزيرة إيطاليا . وقد اتفق الفرس والقرطاجنيون ، واتفق القرطاجنيون والأترسكيون ، على وضع حد لاستعمار اليونان بعد هذه الحركة التى كان من نتائجها انتشارهم فى معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط

لذلك كان لا بد من أن ترتطم قوة الفرس بقوة اليونان فى الشرق ، وقوة القرطاجنيين والأترسكيين مع اليونان فى الغرب . وقد أراد الفرس الانتشار غرباً ، فوجدوا أمامهم اليونان ستتبين فى غرب آسيا الصغرى ، فأخضعوهم لسلطانهم ، ولكن هؤلاء اليونان ثاروا على أسيادهم الفرس ، وطلبوا المعونة والمساعدة من إخوانهم يونان القارة الأوربية ، فلم يلب نداءهم إلا دولتان هما : أثينا وإسبرطة اللتان وجهتا حملة لتخليص إخوانهم من نير الفرس . من أجل هذا حقد الفرس على هاتين الدولتين ، وصمموا على معاقبتهما والانتقام منهما ؛ فكانت ثورة اليونان فى غرب آسيا الصغرى بدء عهد نزاع خطير ، يعرف باسم الحروب الميدية بين قوتين لا يستهان بهما وهما : قوة الفرس وقوة اليونان

وقد استمر النزاع مدة طويلة بين هاتين القوتين . ونحن لا يعنينا اليوم من هذا النزاع إلا تلك الحروب التى نشبت فى أول القرن الخامس قبل الميلاد ، ولا يهمنا منها إلا تلك الشخصية العظيمة ، شخصية « ثيموستوكل » التى لعبت دوراً مهماً جداً فى ترجيح كفة اليونان على كفة الفرس

ولكى نتمثل أهمية الدور الذى لعبه ثيموستوكل ، يجب أن نعلم أن اليونان لم يكونوا متفقين فيما بينهم وبين أنفسهم على الخطة التى يجب عليهم أن يتبعوها . كانوا فريقين : فريقاً منهم مع الفرس يساعدهم ويشد أزرهم ، وفريقاً آخر فى صف الوطن يعمل للدفاع عنه وللتمكين من استقلاله ، وهم بعد ذلك لم يكونوا دولة متحدة قوية تقف صفاً واحداً أمام دولة الفرس ، بل كانوا دولاً صغيرة تتنافس فيما بينها وتحقد كل منها على الأخرى ، ثم إلى جانب هذا وذاك كانت كل دولة على صغرها منقسمة على نفسها فى الداخل تتنازعها الأهواء والأحزاب ، فكان النزاع قوياً جداً بين الارستقراطيين والديمقراطيين فى أثينا ، وشديداً جداً بين الملكيين والإينور الخمسة فى اسبرطة ؛ وكذلك كانت الحال فى أرجوس وكورنث وتساليا وغيرها ، فجاء تيموستوكل واستطاع أن يوحد بين هذه الأشتات المتناقضة وكون منها جبهة قوية وقفت أمام الفرس وصدتهم عن أرض اليونان ، بل وأحرزت عليهم انتصاراً عظيماً هو انتصار موقعة « سلامين » . فالشخص الذى يستطيع أن يجعل بلاده تحرز هذا النصر الحاسم وهى على هذا النحو من الانقسام والفرقة لا شك يعد من أكبر الشخصيات فى التاريخ

وقعت الحرب الميدية الأولى فى عام ٤٩٠ ق . م ووجه الفرس حملتهم الأولى ضد أثينا وبلاد اليونان فى هذه السنة ، فتصدت لهم القوة الأثينية وعلى رأسها مليتاد يساعده بعض القواد مثل طالليا كوس وتيموستوكل وأرستيد ، وتمكنت هذه القوة من صدهم وإلحاق الهزيمة بهم فى موقعة ماراتون الكبرى ، فارتد أسطول الفرس بعد ذلك عائداً إلى بلاده . انتصرت أثينا فى هذا الدور الأول وكانت الشخصية الثالثة هى شخصية مليتاد ؛ أما تيموستوكل فلم يكن له شأن كبير حينئذ ، إنما كان يقوم بدور ثانوى فى هذه المعركة ، إذ وضع هو وأرستيد على رأس الوسط فى الجيش ، أما كبار القواد مثل مليتاد فقد وضعوا على رأس الجناحين لأن خطة الجيش اليونانى كانت ترمى إلى القيام بحركة تطويق لحصر جيش الأعداء

هزم الفرس فى هذه الموقعة ؛ ولكن (دارا) ملكهم لم يكن بالشخص الذى يرضى عن الهزيمة ، وإنما أخذ يعد العدة للانتقام ، ثم مات دون أن يحقق هذا الغرض ، وخلفه ابنه أجزرنسيس تاركا لهذا الابن عبئاً ثقيلاً ومهمة خطيرة ، ولم يصب أجزرنسيس

هذا من النجاح أكثر مما أصاب أبوه من قبل ، ولم ينجح فى النيل من اليونان والانتقام منهم بالرغم مما عرف عنه من مضاء العزيمة وقوة الإرادة وحدة الذكاء ونشاط الشباب . هزم كما هزم أبوه من قبل ، وانتصر عليه اليونان لأنهم أوتوا من الحظ السعيد ما أوجد لهم شخصية عبقرية هى شخصية تيموستوكل التى عرفت كيف تتيسر للأمر ، وتضع الخطط الحربية الماهرة استعداداً لهذا العراك العنيف . وكانت هذه الهزيمة سبباً لازدراء اليونان به ، واحتقارهم له ؛ فتحدث عنه « إشيل » فى تراجيديته الرائعة « الفرس » وصوره كما صوره غيره من كبار الكتاب اليونانيين فى صورة بشعة : صوروه كأنه رجل مجنون أصيب فى عقله ، أراد أن يتسامى إلى صف الآلهة فاعتقد نفسه منهم ، فتكبر وطغى ، فحقدت عليه وتربصت له ، وجعلته يضل السبيل ، ويرتكب من المآثم والفاظات ما كان من الأسباب التى أدت إلى هزيمته

وكان الحزب المسيطر على شؤون الحكم فى أثينا فى ذلك الوقت هو الحزب الديمقراطى ، وهو الحزب الذى استطاع أن يقودها إلى النصر . وكان على رأس هذا الحزب زعيمه تيموستوكل الذى إليه يرجع الفضل الأكبر فى إحراز النصر فى موقعة « سلامين » ، لذلك كان هذا النصر من الأسباب التى قوت من شأن الديمقراطية الأثينية وجعلتها ترتكز على أساس متين حتى بلغت أوجها فى عهد بركليس

لم يكن تيموستوكل من الأشراف ولا من الأرستقراط ، بل ولم يكن من الطبقات الوسطى ، وكانت العادة فى القديم ألا يولى الشخص مهام الدولة إلا إذا كان من أبناء البيوتات الكبيرة . لذلك كان من أعجب الأمور أن يستطيع شخص كتيموستوكل أن يصل إلى أعلى المناصب فى الدولة وهو فرد من أفراد الشعب ، فلم يتعود الناس من قبل أن يتزعم الحزب الديمقراطى شخص من أبناء الشعب ، وإنما كانت العادة أن يتزعمه أفراد من الأرستقراط الذين كانوا يميلون إلى الشعب ويودون إنصافه ورفع الظلم عن كاهله ؛ بل كان تيموستوكل أكثر من هذا ، كان من أصل أجنبى ، ونحن نعرف أن الشعوب القديمة كانت تنظر نظرة خاصة إلى الأجانب لاعتبارات أساسها الدين ، كما وضح ذلك خير توضيح المؤرخ الفرنسى الشهير « فيستيل دى كولانج Fuastel de Coulanges » فى كتابه عن « المدنية القديمة La Cité Antique » لذلك كانوا فى مركز خاص من الوجهة القانونية ، فلم يكن يسمح لهم بالتدخل فى شؤون البلاد الداخلية إلا إذا اكتسبوا حقوق المدينة وهى ما نعرفها اليوم « بحقوق التجنس بالجنسية الأهلية » . كان أبو تيموستوكل من هذا النوع : كان أجنبياً ولكنه اكتسب صفة المواطن بما خوله له دستور كليستين من حقوق ، وكانت أمه أجنبية أيضاً ، ولكنه تمكن ، بالرغم من ذلك ، من أن يعتلى أكبر المناصب فى الدولة ، وهو صغير السن ، كمنصب الأركون فى عام ٤٩٣/٤٩٢ ق . م . وسنه لا تزيد على ثلاثين عاماً ومنصب الاستراتيج فى عام ٤٩٠/٤٨٩ وقد بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، لأنه أوتى من المواهب والصفات ما جعله يصل إلى الحكم فى سهولة ويسر ؛ إذ كان ذكياً إلى أقصى درجة من درجات الذكاء ، وكان سريع الحكم فى ثقة واطمئنان ، وكان خطيباً بارعاً ذاق اللسان فصيحاً ، وكانت موهبته من هذه الناحية موهبة طبيعية لم تأت عن طريق الدراسة ولا عن التجربة ، إنما آتاه الله حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة جعله يسيطر على مواطنيه ، فيملك عليهم مشاعرهم ويوجههم أنى شاء ، فأسلسوا له القياد ، وجعلوه يتربع على مكان الزعامة فيهم . وقد تمكن من هذه الزعامة واستأثر بها ، حتى أنقذ بلاده من خطر داهم كاد يقضى عليها ، فأحرز لها نصراً حاسماً نقلها من دولة صغرى إلى دولة كبرى لها امبراطورية ضخمة ، وتتحكم فى موارد البلاد المجاورة وتشرف على جزء كبير من شرق البحر الأبيض المتوسط . فتكبر وتغطرس ، وطغى وتجبر ؛ ولكنه كان رجلاً لا كالرجال ، وعبقرياً لا كالعبقريين . تضطرنا عبقريته إلى التغاضى عن كثير من عيوبه ، لأن هذه العبقرية من النوع الذى يجعلنا ننحنى أمامه إجلالاً واحتراماً . وهو كغيره من الشخصيات العظيمة التى أحدثت انقلاباً هائلاً فى تاريخ بلادهم مثار نزاع بين كثير من المؤرخين ولا سيما القدماء منهم مثل أبى التاريخ هيرودوت ، والمؤرخ الأول توسيديد : فما الأول عليه قسوة شديدة ، فأصدر عليه حكما فيه شىء كثير من البعد عن جادة الحق ، أما الثانى فكان أقرب إلى الاعتدال : وقف إلى صفه ودافع عنه دون تحفظ ولا احتياط

نظر تيموستوكل إلى بلاده فوجدها عبارة عن شبه جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات إلا جهة واحدة ، ووجد أن الخطر عليها عظيم إذا ما أتى العدو إليها يغزوها عن طريق البحر فينزل إلى البر — كما فعل الفرس — قوات هائلة ، لا يستطيع الأثينيون لها رداً ولا صداً ، إلا إذا كانت لديهم قوات بحرية

تستطيع أن تنازلهم فتبعدهم عن أرض الوطن ، فأخذ يعلن بين الأثينيين أن مستقبل أثينا على البحار . وقد خالفه الكثيرون في ذلك ؛ ولكن التجارب والحوادث التي وقعت فيما بعد أيدت رأيه وصدقت نظريته . رأى كثير من أبناء جلدته أن موقعة ماراثون هي آخر المواقع بين الفرس واليونان ، وأنهم ما داموا قد انتصروا فيها ، وما دام العدو قد ابتعد عن بلادهم فلن يعود إليهم أبداً . لذلك وثقوا واطمأنوا ؛ أما هو فكان يرى غير هذا الرأي ، كان يرى أن ماراثون ما هي إلا خطوة من خطوات النزاع بين الفريقين ، وأن الفرس لا شك راجعون من جديد للانتقام لأنفسهم من الهزيمة الساحقة التي لحقتهم من قبل ، وذلك لوقوفه على بعض أخلاقهم ولمعرفته ببعض عاداتهم . من أجل هذا رأى أن يمكن لأثينا على البحر بأن يؤسس لها أسطولاً بحرياً ضخماً يجعل لها السيادة البحرية من دون منازع . ورأى أيضاً أن يعمل على تحويل الشعب الأثيني من شعب حربي بري ، إلى شعب حربي بحري ، من شعب مشاة وفرسان ، إلى شعب ملاحين وبحارة ، ولكن هذا وحده لا يكفي ، فلا بد إلى جانب هذا من اختيار الموانئ المنيعة التي تصلح لإرساء الأسطول ، والمواقع الطبيعية التي إن حصنت صلحت مراكز مهمة للدفاع عن البلاد . فعدل عن ميناء فاليرو الكشوف لتعرضه للرياح والأعاصير ، ولعدم صلاحيته من الناحية الطبيعية ، إلى ميناء بيريه وحوله خلجان طبيعية منيعة كخليج « ترياً » وخليج « موينخيا » ؛ وهذه الخلجان تصلح هي الأخرى لأن تكون موانئ جيدة . فأخذ يحصن هذا الميناء الجديد ، وساعده على القيام بهذه الأعمال أعمال التحصين — أن كان يتولى مركزاً من مراكز القيادة — وهو مركز الاستراتيج Stratège في عام ٤٩٠/٤٨٩

ذاعت آراء « تيموستوكل » وانتشرت بين الأثينيين ، فانضم إليه كثير منهم يؤيدونه ويساعدونه على تكوين هذا الأسطول البحري الضخم الذي يحلم بتأسيسه ، بعد أن سمعوا ما سمعوا عن استعداد الفرس العظيم ، وقرب قيامهم بالهجوم على وطنهم ، وبعد أن رأوا ما رأوا من هذا النزاع الذي يهدد بلادهم بالخطر بين أثينا وأرجينا ، وفي هذا النزاع لم تستطع أثينا إحراز النصر إلا بعد صعوبة كبيرة ، بعد أن أغارتها كورنث عشرين سفينة من أسطولها ، فأثر الخطر الفارسي والخطر الأرجيني عليهم . وقد زاد عدد المؤيدين لنظرية « تيموستوكل » زيادة هائلة بعد ما وجد الأثينيون أن وطنهم أصبح في حاجة شديدة إلى المواد الغذائية التي قلت بنسبة عظيمة بعد إقفال الأسواق الاقتصادية في الخارج في بلاد معادية لبلادهم ، كبلاد البيوسيين والشاليين ، أو في بلاد خضعت للفرس مثل بلاد شبه جزيرة الكلسيديك والبحر الأسود ومصر . فلم يكن بعد ذلك أمام أثينا إلا سوق اقتصادية واحدة تستطيع أن تتموّن منها ، وهي سوق الغرب في سقلية وبلاد اليونان الكبرى ؛ وأثينا لا تستطيع أن تستورد من هذه البلاد القمح والمواد الغذائية الأخرى إلا إذا كان لديها أسطول عظيم يحمل لها ما هي في حاجة إليه

ثم إن ثيموستوكل أثر على مواطنيه بحجة أخيرة وهي من أقوى الحجج تأثيراً على ذهنية الشعب — إن صح أن للشعب ذهنية — فبين لهم أن الأسطول المزمع إنشاؤه سيكون مورداً لإعالة فقراء الأمة من الذين لا يجدون عملاً ما ، وهم أصحاب الطبقة الرابعة من الشعب المسماة طبقة « التيت Les Thètes » فمن هذه الطبقة سيجند الملاحون والبحارة الذين من دونهم لا يستطيع الأسطول أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل

اقتنعت أغلبية الشعب بهذه الحجج المختلفة ؛ ولكنهم تساءلوا : من أين لنا بالمال الذي يساعدنا على بناء هذا الأسطول ، ونحن نعرف أن الأسطول يحتاج إلى مال كثير ؟ لم يقفوا كثيراً عند هذا السؤال ، إذ ساعدهم الحظ في ذلك الوقت فوجدوا المال اللازم ، وجدوه في مناجم « لوريون » بالعثور في عام ٤٨٣ — ٤٨٢ على عرق ثالث من عروق الفضة قائم بين طبقتين من الطبقات الأرضية ، كطبقة « الشيست » وطبقة « الكلكير » ، وكان هذا مصدر ثروة كبيرة ، وعلى الأخص بعد أن نضب معين العرقين السابقين . وهنا اختلفت آراء الشعب بصدد هذا المصدر الجديد من مصادر الثروة ، فانقسمت الأمة قسمين : قسم على رأسه أرشيد الزعيم المعروف يريد توزيع هذا الإيراد — وهو إيراد منتظم — بين المواطنين جميعاً (ويتراوح هذا الإيراد بين ٥٠ ، ١٠٠ تالانت) فإذا وزع على هذا النحو نال كل فرد ما يقرب من ٢٠ دراخمة (والتالانت فيها ٦٠٠٠ دراخمة) . وقسم آخر على رأسه ثيموستوكل يرى أن تعير الدولة لكل مائة من كبار الأغنياء « تالانت واحدة » على أن تكلف كل وحدة من هذه الوحدات المئوية ببناء سفينة ، حتى إذا اجتمعت هذه السفن بعد بنائها كانت نواة طيبة للأسطول الأثيني . طالت المناقشات بين الفريقين وزاد النزاع حدة بينهما ، ولكن ثيموستوكل وأنصاره تغلبوا

فى آخر الأمر ، ونفى الشعب الزعيم المعارض أرشيد ، وظفر ثيموستوكل وأتباعه بما أرادوه لوطنهم من هذا الأسطول الذى كان السبب الأكبر فى إحراز النصر فى أكبر معركة بحرية فى القرن الخامس على الإطلاق وهى معركة «سلامين» . وعلى هذا النحو حدث هذا الانقلاب الهائل الذى حول أثينا من دولة برية إلى دولة بحرية لها أسطول قوى ضخم كان هو السبب الرئيسى فى بناء مجدها وعظمتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فأصبحت أثينا بذلك دولة بحرية قادرة على الدفاع عن أرضها وعن أرض اليونان جميعاً ضد قوات كبيرة تفوقها فى العدد والعدة وهى قوات الفرس . وقد كان ثيموستوكل فى هذا رجلاً عظيماً ، إذ استطاع أن يحدث هذا الانقلاب وأن يكون هذا الأسطول الذى جمع ما يقرب من مائتى سفينة والذى كان العامل الأساسى فى بناء الأمبراطورية الأثينية البحرية

أخذت أثينا بعد ذلك تستعد للمعركة القادمة وهى واثقة ومطمئنة إلى أسطولها القوى ، ولكنها تشعر تمام الشعور أنها لا تستطيع وحدها مناهضة الفرس ، بل كانت على يقين من ضرورة الحصول على تأييد أسبرطة والدول اليونانية الأخرى . وكانت أسبرطة أثينية ، بلغت أثينيتها حداً عظيماً جداً عرف فى التاريخ القديم ، فهى لا تهتم إلا بشؤونها وبشؤون شبه جزيرة البيلوبونيز الخاصة لسلطانها المستمكنة لأمرها ، ولكنها فهمت أخيراً أن من مصلحتها الاتفاق مع أثينا والمدن اليونانية الأخرى التى تريد الدفاع عن اليونان لوضع خطة دفاعية مشتركة ، لأنها أحست أن فى انتصار الفرس ترجيحاً لكفة أعدائها كدولة أرجوس التى تناوئها العداء فى شبه جزيرة البيلوبونيز ، وإضعافاً لسلطانها ونفوذها هى ؛ لذلك دعت إلى عقد مؤتمر يونانى عام ، هو مؤتمر الجامعة اليونانية الأول ، اشترك فيه عدد من اليونان ، وامتنع عن الاشتراك فيه عدد آخر كان يؤيد الفرس ، ولزم عدد ثالث جانب الحياد . وفى هذا المؤتمر العام الذى عقد بجوار مدينة كورنث نرى ثيموستوكل يلعب دوراً بارزاً أهم ما هو دور الصلح والتوفيق بين اليونان ، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً ضد العدو المشترك ، فهى سعياً حقيقياً للقضاء على أسباب الخلاف بينهم ، وعلى الأخص بين أثينا وأرجينا ؛ ثم إنه أظهر فى هذا المؤتمر أيضاً بعداً فى النظر وترفعاً عن المطامع الشخصية ، فقبل أن يكون قواد الأسطول والجيش من رجال اسبرطة ، وأن يمثل هو فى الأسطول مكاناً ثانوياً مع أن المنطق كان يقضى بأن تكون قيادة الأسطول لأثينا ، لأنها أصبحت أقوى الدول اليونانية فى البحر ، ولكنه تغاضى عن ذلك ورضى أن يعمل تحت إمرة أمير البحر الأسبرطى «إريبياد» بل وأيده كل التأييد ، مع أن «إريبياد» هذا كان دونه فى شؤون البحر ، ثم بذل له من النصح والإرشاد فى موقعة سلامين الكبرى ما يحملنا على أن نقارن بين موقفه هذا وبين موقف سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى رضى أن يجاهد فى سبيل الإسلام تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح مع أنه يفوقه فى الفنون الحربية ، ومع أنه كان يتولى شؤون القيادة قبله على نفس الجيش الذى كان يحارب فى صفوفه . وقد رضى كل من ماند وثيموستوكل بهذ الأنهما لا ينظران إلى مصالحهما الشخصية ، بل ينظران نظرة كلها جلال وجمال . هى النظرة إلى المصلحة العامة ووضعها فى المكان الأول من اهتمامهم ورعايتهم . ثيموستوكل من الرجال الذين يفضلون وطنهم على أشخاصهم ويتعالون بمطامع بلادهم على مطامعهم الشخصية ، لذلك كانوا أبطالاً حقاً . ومن أجل هذا السبب استطاعوا أن يكونوا عند حسن ظن مواطنيهم بهم ، فكونوا لأنفسهم مجداً لا زال باقياً على الحياة ، واسماً لا يزال صداه يرن فى آذاننا حتى اليوم

هذا فى الخارج ؛ أما فى الداخل فقد رضى أن يستدعى منافسه ومعارضه أرشيد من المنفى ، بل وأن يشركه معه فى الحكم ، فاتفق الاثنان معاً فى ذلك الوقت العصيب الذى تعرضت فيه بلادهم لخطر الغزو الأمين . فبرهن ثيموستوكل بذلك أيضاً على أنه قادر على دفن الأحقاد الشخصية فى سبيل رفع كلمة الوطن

وعلى هذا النحو استطاع ثيموستوكل أن يحقق الوحدة داخل وطنه بالاتفاق مع خصومه ومعارضيه ، وأن يحقق الوحدة فى الخارج بالاتفاق بين بلاده والبلاد المنافسة لها وعلى رأسها أسبرطة ، وأن يعد العدة للنزاع المقبل ببناء أسطول قوى لا يستطيع اليونان إحراز النصر بدونه ، فكان أن أعد البلاد على خير وجه لاستقبال قوى الفرس . واليونان مطمئنون إلى عدالة قضيتهم وواثقون إلى قوادهم وزعمائهم ، وهم يعلمون آخر الأمر ويحاربون متحدين متراصين كالبنيان يشد بعضه بعضاً فى سبيل الدفاع عن الوطن المقدس

كان هذا هو الدور الإعدادى الذى أظهر فيه ثيموستوكل مواهب العبقرية فى الزعامة والتنظيم والإدارة . أما عن دور التنفيذ وهو الدور الحاسم الذى أحرز فيه لليونان جميعاً النصر المبين فله مجال آخر سنحدثك عنه فى العدد القادم إن شاء الله

محمد الشمات أيوب